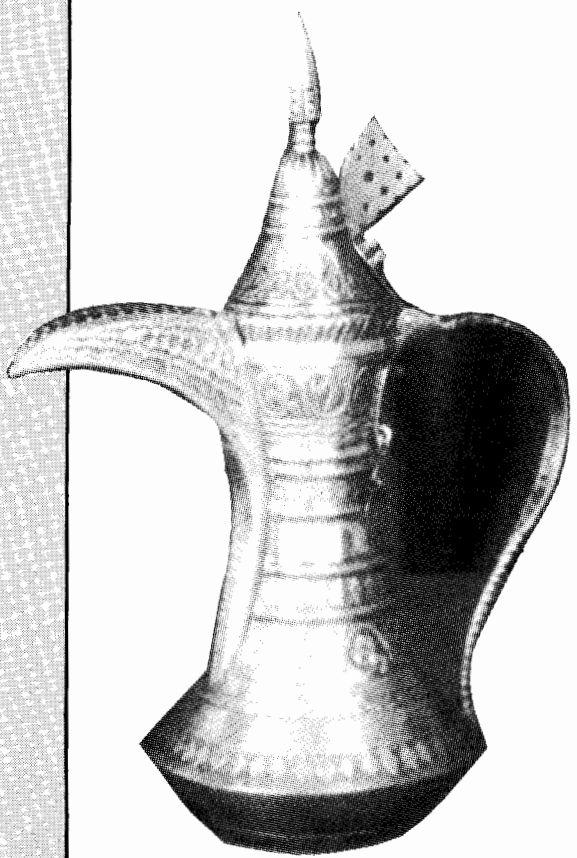
الشرف.. والضيافة

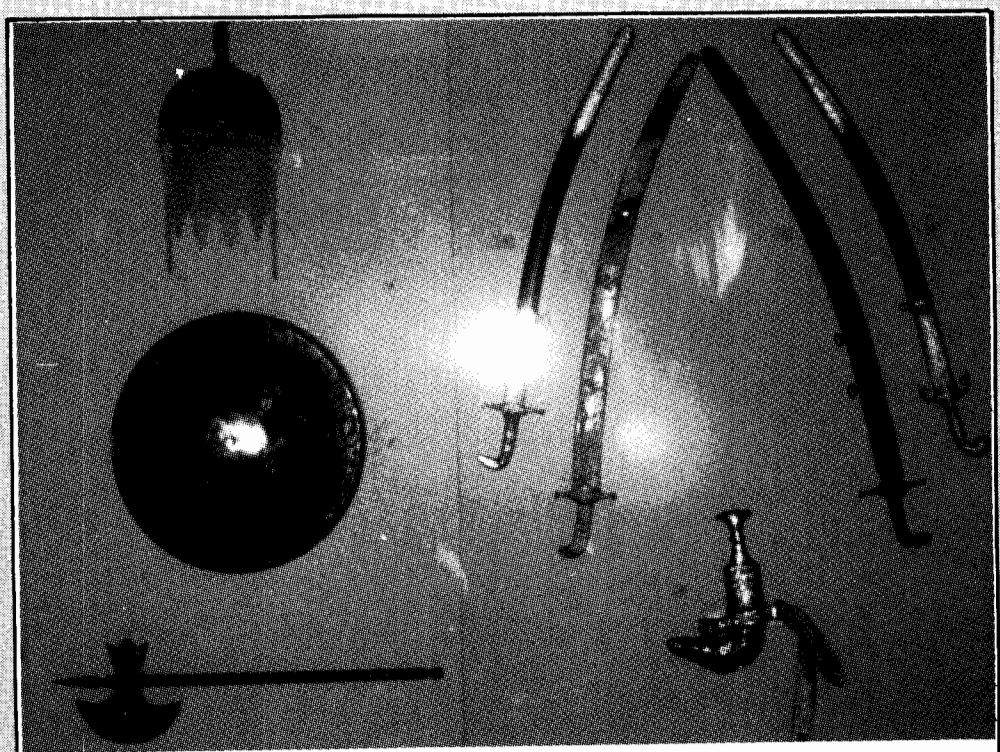
يعتبر الضيف ، عند العرب عامة وبدو الصحراء خاصة ، شخصا مقدسا جدا ويقتضي عرف الضيافة بأن يكرم هذا الضيف ويقدم له الطعام والشراب ويعامل معاملة لائقة حتى ولو كان غريبا أو من قبيلة غريبة .

ولا ينتظر من الضيف أن يفرض وجوده أو يستغل هذا العرف الا اذا كان فعلا بحاجة الى الطعام والراحة . فمثلا بعد يوم طويل من السفر يبحث المسافر عن خيمة يقضي بها ليلته فإذا ما أبصر واحدة يسمح له العرف بالذهاب اليها وطلب الطعام والمأوى . أما اذا كان على بعد ميل أو اثنين من مقصده فعليه أن يعمل جاهدا للوصول اليه بدلا من أن يفرض نفسه على غرباء قد يكونون أفقر حالا منه .

وعلى الغريب أن يتقدم الى الخيمة من بابها الأمامي حتى لا يتعرض للنساء اللواتي قد يكن مكشوفات أو يغسلن شعورهن أو يغسلن أواني الأكل وعليه ألا يجعل جمله يبرك قرب جناح النساء ، وانما على بعد مسافة بحيث يعطى النساء الفرصة لإسدال حجابهن ولباسهن . عند ذلك يخرج صاحب الخيمة فيدعو المسافر أو يبعث خادمه حسب ما يقتضيه وضع الزائر الاجتماعي والذي يبدو من خلال عدد وشكل حاشيته .

واذا كان صاحب الخيمة غير موجود فتخرج زوجته حاملة قدرا من الحليب تقدمه للمسافر أما اذا بدا لها أن العابر شيخ أو من قبيل ذلك تلوح بأحسن ثيابها علامة على ترحابها . كذلك عند عودة زوجها أو ابنها من رحلة طويلة أو من الغوص عن اللؤلؤ تعلق المرأة أحسن أثوابها وأكثرها رونقا وزخرفا فوق عامود أمام باب الخيمة . وتعلق نساء المدن في





هذه المناسبة أحسن أثوابهن فوق سطح المنزل على مرأى من الجميع .

اذا كان رب البيت موجوداً يقوم بنفسه باستقبال الضيف والترحيب به ويرد الضيف التحية بمثلها بدون الاشارة الى زوجة المضيف أو أى من نساء بيته وخاصة اذا كان لا يعرف العائلة . ومن جهة أخرى لا تقترب النساء من الضيف ولا يحاولن مخاطبته الا اذا مضى على وجوده يومان أو ثلاثة عندها يزول التحفظ نسبيا فيخاطبنه (بالأخ) ثم يؤخذ الضيف الى جناح الضيوف وتقدم له القهوة والطعام وفراش النوم . وعندما يخيم البدو فرادى فإنهم يحاولون بذلك اخفاء خيامهم عن الأنظار حتى لا يكشفهم العدو من ناحية ، ولكي لا يراهم مسافر فيفرض عليهم تلك الالتزامات الضيافية .

ويعتبر عمل القهوة للضيوف المهمة الوحيدة والهامة التي يقوم بها الرجل بنفسه ، سواء أكان الضيف قريبا أو غريبا ، وفي حالة الأمير أو الشيخ فيقوم بعمل القهوة بدلا منه خادم أو شخص موثوق به .

دعونا نتخيل بأننا قد وصلنا الآن الى بيت بدوي ميسور الحال . يعمل القهوة بنفسه . بعدأن برك جملنا على بعد من جناح النساء يقوم المضيف بالترحيب بنا واجلاسنا في جناح الرجال . تنتشر قطع السجاد الأنيق على الجانبين ونتكيء نحن على سروج الجمال التي وضعت بجانب القاطع الذي يفصل جناح النساء ، أو نجلس متربعين بانتظار حفلة القهوة ، في

نفس الوقت نستمع الى عبارات الترحيب التي تصدر عن مضيفنا (يا هلا .. طال عمرك .. حياك الله .. يا هلا ..) يتخللها نداءاته الموجهة الى رجاله في الخيمة لإحضار الروث المجفف وقطع الخشب لموقد النار والماء من الأوعية الجلدية قرب طرف جناح النساء . وفي الوقت الذي يصدر فيه أوامره بصورة سريعة ومتقطعة يجلس قبالة ضيوفه ويمطرهم بالتحيات والسؤال عن صحتهم ، ثم يقوم فينظف موقد النار في جناح الضيوف ويبدأ بملئه بالوقود .

والآن يجلس مضيفنا ويبدأ بالتركيز على عمله ويلاحظ بأنه لا يسألنا عن أعمالنا ولا من أين أتينا والى أين نحن قاصدون ، لأن في ذلك قلة أدب وعلى الضيوف أن يقوموا بإخباره إن هم أرادوا ذلك .

ويوجد الى جانب الموقد أربع (دلال) أباريق قهوة ذات أحجام مختلفة . ثلاثة منها قد أسوّد لونها من جراء اقترابها من النار والرابع (الذي تصب منه القهوة للضيوف) يظل براقا ولامعا . يضع مضيفنا هذه الأباريق صفا واحدا بجانب الموقد ويبدأ بإشعال النار . ثم يأخذ حبوب القهوة من كيس جلد الغزال المزركش ويجهز المحمصة والابريق الذي يحمص فيه القهوة ويد المحمصة التي يحرك بها القهوة . ثم يضع بجانبه وعاء الفناجين وهو صندوق نحاسي أسطواني الشكل تحفظ به فناجين القهوة أثناء السفر ، والهاون المصنوع من النحاس ، والمبرد وهو الطبق الذي يستعمل لتبريد القهوة بعد تحميصها ، والمخبط (خشبة لتحريك القهوة أثناء التحميص) ، وليفة (سعف من النخل أو القنب) يستعمل كمصفاة وأخيرا البخور .

وعندما يخمد لهب النار يملأ مضيفنا المحمصة بحبوب القهوة ويحملها بواسطة يدها الطويلة فوق النار وأحيانا يضعها فوق مقعد معدني من ثلاثة أرجل بحيث لا تلمس الجمر في الموقد . وعندما يصير لون القهوة بنيا يحركها باستمرار حتى لا تحترق ، بعد ذلك يضعها في المبرّد الخشبي لتبرد ثم يصب من الابريق الثاني (الخمرة) في القدر الثالث (وهي قهوة اليوم السابق التي أضيف عليها قليل من الماء) . يملأ القدر الثالث بالماء البارد يوضع فوق النار وما أن تبدأ (الخمرة) بالسخونة حتى تصب حبوب القهوة في الهاون وتبدأ أحب الموسيقى الى البدوي في العزف وهي صوت الهاون والمهباش (يد الهاون) . ويعتبر كل عربي خبيرا بطحن القهوة والتفنن في ايقاعات المهابش والهاون . وبعد عدة ضربات يهز مضيفنا المهباش من جانب الى آخر داخل الهاون لإنزال القهوة العالقة به في الوقت الذي تؤدي هذه الحركة الى قعقعة متقطعة . وقد تؤدي هذه الموسيقى (الايقاعات) الى قدوم مجموعة كبيرة من الأقرباء والجيران .

يستغرق طحن القهوة من خمس الى سبع دقائق تقريبا وما أن تغلي (الخمرة) حتى يقوم المضيف بصب القهوة المطحونة في ابريق القهوة بعناية بالغة ويحركها باستمرار بواسطة المخبط ويضعها فوق النار ثم يرفعها عن النار كلما أصبحت على وشك الطفو . وبعد أن تأخذ حاجتها من الغليان يرفعها عن النار ويهمس من فوق القاطع الى نسائه لمناولته حب الهيل . وترتفع يد صغيرة من فوق الستارة ببعض حبوب الهيل الثمينة ، فيضعها بالهاون ويسحقها قليلا ثم يضيفها الى القهوة .

ترفع القهوة من على النار ثم تحضر (الدّلة) الابريق المتألق اللامع . يرفع غطاء الدّلة ثم تصب فيها القهوة ، ثم تصب مرة ثانية في الدّلة السوداء الكبيرة ، ومرة أخرى بعد عدة ثوان تصب في الابريق اللامع . وتوضع الليفة في طرف (بزباز) الابريق . وفي نفس الوقت تؤخذ ثلاثة أو أربعة فناجين من وعائها وتغسل بالماء البارد ثم يتناولها المضيف بيده اليمنى وابريق القهوة في يده اليسرى . ويقوم بصب قليل من القهوة لنفسه ويشربه وهو تقليد يؤكد خلوها من السم . ثم يقوم بصب بعض القهوة يكفي لبضع رشفات في فنجان أهم ضيف ثم يدور ببقية الضيوف يقدم لهم القهوة . وعندما ينتهي أول الشاربين من قهوته ، يأخذ المضيف الفنجان ليقدم فيه القهوة مرة أخرى ، بدون غسله ، ثم تتكرر نفس العملية حتى يكتفوا . والسلوك المهذب عادة يمنع الضيوف من شرب القهوة أكثر من ثلاثة أقداح من القهوة . ولكن اذا كان الضيف ذا مكانة خاصة يلح عليه بتناول قدح رابع وخامس . ويمسك العربي بالقدح بين إبهام وسبابة اليد اليمنى عندما يريد الاشارة الى تناول كفايته من القهوة يهز الفنجان الخالي هزات سريعة متلاحقة .

وعندما ينتهون من تناول القهوة يتحدثون لفترة ما ويتبادلون عبارات الترحيب ثم تقدم القهوة مرة أخرى . واذا لم يكن الضيوف مدعوين للطعام أو لقضاء الليلة ، فأنهم يستعدون للرحيل . وقبل ذهابهم يرسل أحد أهل الدار الى خباء النساء لإحضار بعض البخور . وفي المبخر توضع (الجلة)روث الجمل المشتعل وفوقه البخور . ومن حين لآخر يتصاعد دخان معطر زكي ويمرر المضيف المبخر قريبا من أنوف ضيوفه وعند أطراف كوفياتهم أو في طيات عباءاتهم . ثم يرحل الضيوف في صمت .

وفي المدن تلاحظ مراسم مشابهة . ففي الكويت عندما يمر زائر عابر بمجلس الصباح لدى شيخ أو تاجر معروف يقدم له قدح من القهوة عند حضوره وآخر بعض عشر دقائق يتبعه المبخر . وفي مثل هذه الجلسات يتوقع انصراف الضيف عند هذه النقطة . والقول (ما بعد العود قعود) مثل بدوى شائع . وفي أقاليم شمال الجزيرة العربية وفي مصر تقدم القهوة التركية المحلاة المخلوطة بالثفل وعلى سطحها طبقة من الرغوة . ويقوم بإعدادها أحد الخدم في المطبخ بعيدا عن الأنظار .

ومن البدو من تستمر زيارتهم أكثر من عشر دقائق ـ ويتوقع أن يتناول الطعام أو قضاء الليلة ـ وتقدم القهوة على فترات متفاوته كل ربع ساعة تقريبا . وعندما يحين موعد الطعام ، اذا كان الضيف هاما والمضيف من الموسرين نوعا ما ، تذبح شاة وتطهي مع الأرز المخلوط بالزبيب واللوز وحلقات البصل . ويقدم كل هذا فوق صوان مطروقة نحاسية كبيرة ومستديرة (واذا كان المضيف يستحسن عادات وسلوك أهل نجد ، يثبت قاعدة منخفضة أسفل الصينية) توضع فوق حصيرة مستديرة . ويكوم الأرز المطبوخ فوق الصينية ويغطى بالصلصلة الصفراء المصنوعة من دهن الغنم . ويعلو ذلك خروف أو شاة صغيرة مسلوقة ، وعادة ما تكون ذكرا . ويطهى الأرز واللحم بطريقة بسيطة مع كمية كبيرة من الزبد المصفى (السمن) وعادة ما يكون اللحم عسير المضغ إلا اذا كان الخروف صغيراً . وأطيب قطع اللحم

وأرقها هي الشرائح الموجودة على جانبى العمود الفقرى وأجزاء الكتفين وأجزاء الفخد قرب مفصل الأرجل ، واللسان ، والكليتين وجانبا الفم والعينين كذلك من الأجزاء الشهية المعروفة . ويعتبر شحم الذيل من نصيب الضيف دائما الى جانب طبق اللحم والأرز يضع المضيف سلطانيتين أو ثلاثا من اللبن الذي يطفو فوق سطحه قطع من الزبد ، وكذلك صحنا أو اثنين من التمر .

وبعد تناول الطعام تقدم القهوة وهي بالنسبة للبدو مشروب عادي يصنع مع كمية كبيرة من حب الهيل . ومن آداب السلوك شكر المضيف بعد الغذاء مع مدح الطعام ومهارة ربة البيت في طهوه . ولا يأكل المضيف مع ضيوفه بل يتناول طعامه فيما بعد مع باقي أفراد الأسرة . واذا كان الضيف شخصية هامة فمن اللائق أن يترك عند رحيله هدية من الأرز والقهوة أو السكر لأهل الخيمة . واذا أراد أن يظفر بثناء أكثر فإنه يجلب معه أقمشة تكفي لصنع ستة أثواب لنساء الخيمة .

واذا كان الضيف بدويا فقيرا يقدم له عشاء مكون من الأرز المطهو بدون لحم مع بعض التمر واللبن . واذا كان هذا المضيف فقيرا فإنه يستقبل المسافر ويبذل أقصى جهده لاستضافته حتى ولو كان لا يستطيع تقديم إلا بعض التمر فقط .

ولا يقدم البخور أبدا إلا من قبل أصحاب الخيام المجهزة بكل الأدوات ، في هذه الحالة يقدم بعد تناول الطعام والقهوة . وبعض القبائل وخاصة قبائل المنتفق على شواطىء نهر الفرات ، يدققون كثيرا في اتباع تقاليد الضيافة لدرجة أنهم قد يجلبون الخراب لأنفسهم حتى لا يقال أنهم بخلوا بشيء على ضيوفهم . فقد يمتلك الرجل شاة واحدة ولكنه يذبحها راضيا لإطعام ضيف غريب . وأولاد واصل في فرع (البرية) من قبيلة مطير لهم شهرة مماثلة في اكرام الضيوف ولهذا يحظون بكثير من الإحترام .

ومن العادات التي تتبعها بعض القبائل ، وخاصة الظفير ، وغالبا ما تزعج الجالسين لتناول الطعام . أنه عندما يجلس جماعة من الرجال لتناول العشاء ، اذا شبع أحدهم ونهض مكتفيا ، يجب على بقية الجماعة النهوض أيضا وغسل أيديهم دلالة إنتهائهم من تناول الطعام . ولتجنب ترك المائدة قبل تناول الكفاية من الطعام تكون النتيجة أن الضيوف يزدردون الطعام بطريقة مؤذية .

والمشروبات المفضلة بين أصحاب قطعان الغنم هي اللبن والروبة (اللبن السميك المخثر) . والقبائل التي تملك الإبل يستطيعون عمل اللبن من حليب الناقة ، ولكنهم غالبا ما يقدمون حليب الناقة للضيف . اذ أنه لا يحتوي على قشدة ولهذا لا ينتج عنه زبد ، وهو مسهل بعض الشيء ولهذا يستحسن تناوله بكميات قليلة .

وحفلات العشاء التي يقيمها سكان المدن أو العرب الأكثر ثراء ، هي مناسبة أفخم مما سبق ذكره ويجهز الأرز بالطريقة المعروفة لأهل العراق وشمال ايران . فبعد سلقه يحمر الخروف بأكمله وذلك بتقليبه في السمن أو الدهن الحار . ويمكن شيّه في فرن الخباز وهذا ما يعرف باللحم المشوي ويوضع فوق الأرز طبقة رقيقة من الزبيب الحار ، والبصل المبشور المحمّر ، والحمص وتوابل

أخرى . وغالبا ما يقدم حب الرمان المجفف المبشور الذي يشبه البرغل . ويحاط كل ذلك بأطباق ، أو سلطانيات صغيرة ، مملوءة بأنواع أخرى من اللحم ، والخضراوات ، والفواكه (وعادة ما تتكون من شرائح البطيخ) . ويتصاعد عدد الأطباق مع أهمية وثراء المضيف . وفيما يلي أهم الأطباق التي تقدم :

المـــرق : شهيـة بنية اللـون مصنوعة من قطع صغيرة من اللحم والطماطم والباذنجان والبامية .

مرق الطماطم : مثل المرق السابق ويطبخ من صلصلة الطماطم والبصل .

شيـخ المحشي : قرع أبيض صغير ، أو يفضل الخيار الكبير الحجم المحشى بالأرز واللوز واللحم المفروم .

الدولمة أو البراغ : أرز مجروش ولحم ملفوف بورق العنب ، ويطهي بعناية .

الدولمة : بصل ملفوف أو ورق عنب كالسابق .

كبـــاب : خليط مفـروم من اللحم ، والأرز والزبيب . لذيذ الطعم والرائحة .

محلبية (مهلبية) : أرز مطحون أو نشا يطهي بالحليب ويجمل طعمه بحب الهيل وأحيانا بالفستق المفروم .

المهلبية والزعفران : كالخليط السابق ويمزج معه الزعفران ليصفر لونه .

الهـريس : نـوع من القمـح المجروش وثريد اللحم .

ويقدم مع كل هذه الأطباق صحون من التمر ، وسلاطين من اللبن ، والعنب وشرائح من البطيخ الأصفر أو الأحمر (في موسمها) مع رقائق كبيرة رفيعة مستوية من الخبز بدون خميرة ، أو خبز سميك مستدير مستوي يخبز في الأفران شائع جدا في الشرق . وكذلك أطباق مختلفة الألوان من الحلوى الرجراجة (الجيلي) .

والضيف الذي يبحث عن مكان للراحة عادة مايمكث ليلة واحدة ثم يرحل في الصباح الباكر . وهذا النوع من الإستضافة في الصحراء يحدث يوميا . ولا يجرؤ الضيف على محاولة دفع أي نقود ، اذ لن تقبل محاولة كهذه ، وعندما يزور شيخ أو رجل ذو سعة (ميسور الحال) خيمة رجل فقير فمن المتوقع أن يكافيء مضيفه بهدية نقدية أو منحة من الأقمشة عند رحيله أو عند وصوله الى داره . وثلاثة أيام هي الحد الأقصى لبقاء ضيف في ضيافة صاحب الخيمة . وإذا مكث ، مدة أطول فمن حق المضيف أن يسأله عن وجهته وأن يطلب منه المساعدة ويكلفه بعمل أي شيء . وعادة ما يكون هذا التلميح كافيا وينطلق الضيف المتقاعس في طريقه .

والملوك ، والأمراء العظام والشيوخ ذوو الشأن في الصحراء يلحون على ضيوفهم المبجلين في البقاء والتمتع بضيافتهم لمدة تصل الى عشرة أيام ، ولكن بعد ذلك يستأذن الضيف في الرحيل . وعنـدئذ يتبـادل الطرفـان الهدايا . وأتذكر في المناسبتين اللتين زرت فيهما الملك ابن سعود مع سير بيرسي كوكس (وكان في ذلك الوقت المندوب السامي في العراق) أن قام سير بيرسي عند رحيلنا بدفع مبلغ ٦٠٠ روبية هبة لخدم الملك وأتباعه ، بينما تسلم هو وجماعته من الأوروبيين فرسا وزيا عربيا كاملا لكل منهم ونال كل خادم عباءة وكوفية وعقالا . وفي يناير عام ١٩٣٦م قام بتوزيع ٣٠٠ زبون ، عندما زار ابن

سعود الكويت ، (وهي جبة من القماش الراقي) وعباءة على أتباع الشيخ ، وأعطى مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ روبية كهدايا لمن يستحقونها ، ووزع بنفسه ١٠,٠٠٠ روبية على الفقراء ، وفيما بعد أتبع ذلك بإحدى عشرة سيارة هدايا لأقارب الشيخ . وقام الشيخ من جانبه بتوزيع ٩٥,٠٠٠ روبية ، منها ٢٥,٠٠٠ روبية لأبناء الملك ، وكذلك ٧٥٠ زبونا وعباءات لأتباعه . وتقديم الهدايا من جانب المضيف لضيفه هو امتياز خاص للمضيف إذا كان ذا شأن وضيفه فقيرا . وأي شيخ بدوي يأتي لزيارة الملك أو الأمير أو شيخ رفيع المكانة يتوقع استقبال هدية قبل رحيله ، تقديرا للرحلة البعيدة التي قام بها لتقديم ولائه وابلاغ (نقل) المعلومات .

وعادة الضيافة يمتد مغزاها وراء التقديم الفورى للطعام والمأوى ، فإن مجرد تناول الطعام والقهوة مع الضيف يعطيه الحماية والأمان من قبل مضيفه وحتى من أقربائه وقبيلته . وهذه الحماية تستمر ثلاثة أيام ، إذمن المعتقد أن ملح طعام المضيف يبقى في معدة الضيف خلال تلك الفترة . وبالمثل فإن الضيف ملزم بأن لا يصيب المضيف ضرر من جهة قبيلة الضيف . وقد سمعت عن رجل قدم ، خلال رحلته ، الى خيمة رجل من قبيلة أخرى وقضى الليلة هناك . وفي اليوم الثالث هاجمت جماعة من قبيلة الضيف خيمة المضيف واستولوا على خمسة جمال وفرس . وكان للمضيف حق عادل على الضيف فاستطاع استرجاع حيواناته بفضل تدخل الضيف . وفي مثل هذه الحالة لابد أن يقوم الضيف بتلك الإعادة (التعويض) ليس ذلك فقط ولكنه سيجد القبيلة بأكملها في صفه إذا كان من الضروري إرغام المغيرين الذين سرقوا الإبل . وبالإضافة إلى ذلك يعطي المضيف جملا أو اثنين إضافيين كتعزية (تعويض) عن خرق عهد الضيافة .

ويمكن مقارنة قوانين الضيافة بالقوانين الخاصة (بالرفيق) وهو رجل واجبه أن يقودك سالما عبر أرض القبيلة ، وحتى إذا كانت قبيلته على عداء مع قبيلتك أو أهلك ، وفي تلك الحالة يكون شرف القبيلة كلها في الميزان (في خطر) وليس شرف ساكن الخيمة فقط .

فمثلا إذا أراد رجل السفر من الكويت الى الحجاز فإنه عادة ما يختار (رفاقه)من المطير ، حرب ، عتيبة ، قحطان أو بعض القبائل المحلية لكي يقودو،عبر أراضي تلك القبائل التي تقع على الطريق . و(الرفيق) عادة ما يستأجر مقابل أجر بسيط وعندما يمر بك عبر أراضي قبيلته عليك أن تجد (رفيقا) آخر من القبيلة التي ستمر بأراضيها . وإذا تركك في تلك الأرض الغريبة يمكنك الحصول على تعويض وافر من الرجل وشيخ قبيلته إذا استطعت إثبات دعواك .

وإذا لم يستطع (الرفيق) لأي سبب من الأسباب مرافقة عميله فيكفي أن يعطيه عصاه ويحفر عليها العلامة المميزة (الخاصة) لقبيلته أو لبطن القبيلة المباشر . وعندما يعطي (الرفيق) عصاه للمسافر فإنه يخبر الجميع بأنه أعطى فلانا عصاه المميزة كضمان له . ولا أحد يجرؤ على المساس بالمسافر خلال مروره أو تواجده في (الديرة) التي تسكنها قبيلة (الرفيق) .

والقوانين المتعلقة (بالقصير) ، جيران خيمة الفرد ، لها مكانة أكثر تقديسا واحتراما من أى عادة أخرى تتصل

بشرف العربي ، بدون استثناء .

وبالتحديد ، فإن ساكن الخيمة هو (قصيرك) إذا نصب خيمته على مرمى (العصا) البعد الذي يمكنك وصوله إذا ألقيت عصاك أو مهمازك (عصاة جملك) . وقد أراني مدرب صقور الرشيدي في عريفجان في عام ١٩٣٢م المدى البعيد الذي يمكن أن تصل إليه تلك العصي إذا ألقاها رجل قوي ، ويقضي ذلك بأن من ينصب خيمته على ذلك البعد من بدوي آخر يصبح في واقع الأمر جارا له ويتمتع بإمتيازات (القصير) . والقصير في حماية الله ، وقد كتبت قصائد وحكايات كثيرة منذ قديم العصور عن الحقوق المقدسة (للقصير) ، وعن الطريقة التي يجب على العربي الشريف أن يعامل بها جاره .

وغالبا ما يعسكر أفراد نفس القبيلة معا وتربطهم صلات القرابة لمساندة بعضهم بعضا في جميع الأحوال ، ولكن قوانين (القصير) تنطبق بصفة خاصة عندما يأتي فرد من قبيلة غريبة ، وأحيانا معادية ، ويطلب السماح له بنصب خيمته قريبا من خيمة شخص آخر ، وينضم الى تلك القبيلة في ترحالهم . وإذا أجيب طلبه ، وهو عادة لا يرفض أبدا ، تسري عليه تلك الحقوق فورا ، رغم أنه يفضل أن يقوم (القصير) ، إذا إستطاع مقابلة شيخ قبيلة حاميه ، بذبح جمل ويدعو الشيخ إلى وليمة عامة . وعندئذ يضمن الشيخ أن الجميع يعرفون أن الغريب صار في حماية القبيلة .

ويصبح جار الخيمة ضيفا على ذلك البدوي الذي سمح له أن يعسكر قريبا منه ويصبح (قصيره) . ويتمتع بإمتيازات خاصة ولا يخضع لقواعد وتعليمات قبيلة حاميه . ويجب على البدوي حماية (القصير) ضد جميع المهاجمين وبالمقابل فإن على (القصير) حماية وصيه ضد المغيرين حتى ولو كانوا من نفس القبيلة .

وإذا سرق حيوان أو أى شيء من خيمة (القصير) واشتكى إلى حاميه ، فيجب على حاميه إما أن يستعيد ما سرق أو يعوضه عنه . وكذلك إذا هاجم المغيرون (قصيرا) واستولوا على إبله وأفراسه ، فيجب على حاميه أن يعوضه عنها من الغنائم التي يسلبها في غارته القادمة الناجحة . وإذا سرق لصوص الإبل جمالا من قبيلة مجاورة ، فلابد أن ينضم الوصي بنفسه في البحث واكتراء الرجال على حسابه الخاص للبحث عنها .

وإذا كانت هناك شكاوى ضد (القصير) فيفضل بحثها عن طريق الشخص الوصي عليه . ويقول الوصي (قاضيني ولكن لا تقاضي قصيري) فإنني أحل محله . وإذا قام (القصير) بقتل رجل من قبيلة حاميه وطلب منه المساعدة ، فلابد أن يساعده الوصي ويسعي في هربه الي بر الأمان ، حتى ولو اضطر الى الإستعانة بأفراد عائلته لهذا الغرض . وإذا قرر (القصير) دفع الفدية (فدية القتيل) فيجب أن يقوم الوصي بحمايته حتى تتم المفاوضات .

وإذا نشبت الحرب بين قبيلتي (القصير) ووصيه ونهبت الإبل من كلا الجانبين فهم في حل من إعادة الإبل إلا إذا صرح كلاهما علانية أمام شيخيهما بأنهما سيقومان بتعويض أى خسائر تقع على الطرف الآخر . عندئذ تقوم القبيلة المغيرة والتي استولت على جمال أو خيول من الطرف الأخر برد تلك الأسلاب إذا طلب منها ذلك . وإذا كان في خدمة الوصي بدوي غريب يرعى له إبله وغنمه وظهر

بعض من قبيلة ذلك الراعي واستولوا على القطيع ، فيجب على المغيرين إعطاء ثلاثة من النوق لرجال قبيلتهم ، واحدة للركوب وإثنتين لإدرار الحليب .

وبعض قبائل الصحراء ، وخاصة الظفير ، يفخرون بالشهرة التي اكتسبوها لحماية جيران خيامهم . وقد سمع جدعان السويط، شيخ الظفير ، أن أحد رجال قبيلته أطلق النار وتسبب في جرح رجل من قبيلة المطير وكان هذا الرجل (قصير) الشيخ في ذلك الوقت . وأمر الشيخ جدعان بإحضار المعتدى أمامه وقام بنفسه بالإطاحة برقبته بسيفه . وانتشرت أخبار هذه الحادثةبين البدو ، وأصبح جدعان حامي الشرف البدوي مشهورا كشهرة سلفه ، حمود بن سويط . فقبل أن يصبح حمود شيخا ، قام بقتل ابن عمه إرضاء لشرف القبيلة عندما هدد عمه على الملأ بخوزقة نفسه وذلك بالجلوس على سيفه إلا إذا أحضر ابنه أمامه وقتل بحضوره وذلك لقتله (قصيره) في عراك أحمق ! .

وذات مرة ، عندما كنت في الكويت ، كانت تسكن المنزل المجاور لمنزلي مطلقة تاجر لؤلؤ مشهور وابنتها التي تبلغ من العمر الخامسة عشرة . وقد طلب ابن عم لها الزواج منها ولكن الأم صممت على الرفض إلا إذا أعطيت مالا كافيا يمكنها من العيش بمفردها . واشتكى ابن العم لشيخ الكويت الذي قرر أن الشاب على حق وأرسل حرسه عدة مرات لإحضار الفتاة من منزلها ولكن في كل مرة كانت جارتي ترفض السماح لهم بالدخول .

وفي ليلة من ليالي يوليو الحارة كنت نائما فوق سطح داري الذي كان يطل على منزل جارتي . ولم تكن تنام فوق سطح دارها أبدا . وكانت الليلة لا يضيئها قمر ، وقرب منتصف الليل تقريبا استيقظت على صوت جارتي الذي انطلق في الظلام يناديني (أبا سعود ، يا أبا سعود) ، (استقيظ واسمع) . وأفقت من نومي تماما حينما أدركت أن هناك من يكلمني في صوت هامس عبر سطح جارتي على بعد خطوات . (ماذا حدث ؟) سألت محدثي (من هذا الذي أيقظني في منتصف الليل ؟) أجاب الصوت (أنا قصيرك ، وأناشدك أن تستمع الى .) . الآن عرفت من المتحدث الي عبر الجدار وسرعان ما ألمت بالقصة كلها . وفي النهاية قالت جارتي (آه يا أبا سعود إنني في كرب شديد ، أتوسل إليك أن تساعدني ، إنني قصيرتك ، جارتك .) سألتها ماذا تريدينني أن أفعل ؟) أجابت : (أن تذهب في الصباح وتخبر الشيخ أحمد عن توسلاتي ، دافع عني وعن ابنتي ، إذ لو أخذوها فإنني سأموت حتما . ولم تفد كل حججي بأنها ليست في حمايتي وليس ذلك من اختصاصي . وأجابت : (لا أعرف شيئا عن ذلك . كل ما أعرف أنك جاري .. والقانون يحتم عليك أن تهب لمساعدتي .)

وأخيرا وعدتها بأن أفعل ما أرادت ، وذهبت الى الحاكم ، معتذرا عن تدخلي فيما ليس من شأني ، ولكن بتوضيح أن المرأة طلبت أن تكون (قصيرتي) ، ابتهج الشيخ بدفاعي عن أحد رعيته المسلمين ضد قراره ، وقد تأثر بالطريقة التي احترمت بها إحدى نساء دياره وألغي الأمر الصادر سابقا واعاد الإبنة الى أمها .

(الدخالة) هو قانون الدخول في حماية شخص ما متوسلا . وهذا القانون المقدس من عادات العرب ينتشر في الجزيرة العربية كلها والعراق ويقابل

بأقوى الإستجابة بين البدو ، وتعارضه القبائل المستوطنة أهالي المدن والعربي يطلب (الدخالة) بقوله : (أنا متوسل بك ، وأدخل في عفو الله وعفوك) . ويجب على الشخص الموجه إليه التوسل أن يحمي الشخص المستجير به ويقاتل من أجله ويبلغ به بر الأمان .

وإذا طورد شخص لإرتكابه جريمة فباستطاعته دخول خيمة (أو منزل) ويستجير (الدخالة .) . وعلى مالك الخيمة ليس فقط ضمان الحماية ولكن أيضا ، بعد إطعام الزائر وكسائه ، أن يأخذه الى المنزل أو الخيمة أو القبيلة حيث يعتقد المستجير أنه سيكون بمأمن فيها . وعند ذلك تنتهي مسؤولية الوصي .

وقانون (الدخالة) صارم جدا بين البدو لدرجة أن باستطاعة شخص يحمل عصا مميزة بعلامة الشيخ الذي احتمي به المرور بأمان في طول وعرض أراضي القبيلة ، رغم وجود أعداء له بينهم .

وقانون (الدخالة) يختلف في تفاصيله بين قبيلة وأخرى . وقد أخبرني شيخ المطير أن قبائل المطير وقحطان ، والعتيبة يمنحون قانون (الدخالة) لأي فرد من أبناء قبائلهم إذا إلتجأ بهذا القانون لمدة إثنى عشر شهرا و(الداخل) يستطيع التجول بأمان تام بين قبيلته خلال هذه المدة . وسمعت أن قبيلة عجمان لها قانون مماثل ولكن (الداخل) يجب عليه ألا يبرح المنطقة المجاورة لخيمة أو خيام من منحوه (الدخالة) ، ويجب عليه أن ينصب خيمته قريبا منهم مثل (القصير) . وهذا يعطيه حماية مزدوجة .

ومن ناحية أخرى فان قبائل شمر ، والظفير ، وحرب ، والعوازم تمنح (الدخالة) لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي فقط ثم يضطرون لمساعدة (الداخل) في الهرب الى مكان أو شخص أمين . وتلك القاعدة يتبعها تقريبا كل قبائل ما بين النهرين في العراق . وليس باستطاعة المرأة منح حق (الدخالة) لأي شخص إلا إذا كان زوجها غائبا عن مضارب الخيام .

وأخبرني أحد الشيوخ أنه إذا قام مطيري بالأضرار (بالداخل) المحتمي بمطيري آخر ، فان من حق مانح (الدخالة) الإغارة على خيام المعتدي سبع مرات وقتل أكبر عدد من رجال عائلته ونهب قدر ما يستطيع من إبله بدون التعرض لأدنى عقوبة . ولكن لا يمكنه أخذ الإبل بل يجب عليه قتلها خشية اتهامه بالطمع فيها بدلا من الانتقام الذي أغار من أجله .

وفي الأقطار العربية الحديثة حيث حاولت السلطات القضاء على العادات القبلية ، فان ممارسة قانون (الدخالة) مكروه من قبل الحكام ويجدد رجال البوليس أنفسهم عقبة أمامهم . وأتذكر حادثة لم يقرها القانون أدت بخادم مخلص ومطيع لابن سعود الى المنفى . فقد اضطر صديقي الشيخ لا في بن معلث ، وهو من قبيلة المطير ، الى الهرب الى العراق لأن رجلا كان بوليس ابن سعود يطاردونه لاذ بخيمته وطلب حق (الدخالة) . وقد قاوم لا في كل محاولات البوليس لتفتيش خيمته بحثا عن الهارب ، ولكن لعلمه أن ذلك لن يغتفر له فقد هرب عبر الحدود مع كل أفراد عائلته المقربين . ولو كان البوليس قد انتظروا الأيام الثلاثة لكان من الممكن القبض على الرجل والإحتفاظ بولاء الشيخ .

وقريبا من قانون (الدخالة) فكرة (الوجه) والتي سنشرحها بصورة أوضح في كلامنا عن الحرب

الآن أوضح كيف تسبب قانون (الدخالة)

في إنقاذ ضابط بريطاني حيث استجار بذلك القانون لدى حسن أغا ، قرب السماوه على نهر الفرات . فقد بدأت ثورة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ في الرميثة عندما اندفعت قبائل تلك المنطقة الى المعتمد السياسي وأطلقت سراح السجناء من السجن . وكان ضابط بريطاني شاب في طريق عودته الى الرميثة عندما أدرك أن هناك شيئا غير عادي ثم سمع طلقات رصاص وطاردته جماعة من الفرسان قادمين من جهة المدينة واستطاع الوصول الى حسن أغا ، وهو فلاح بسيط ذو شأن لدى الإنجليز . وكان حسن أغا غائبا عن الدار ولكن الضابط توسل بنساء المزرعة طالبا الحماية والمأوى . وأدخلنه عندهن وغطينه بعباءة . وعندما وصلت جماعة المطاردين ، طالبوا بتسليم الضابط الانجليزي ، ولكن النساء ـ زوجة حسن وابنتيه ـ صرخن واستغثن من هذا الانتهاك لحرمتهن حتى تراجع الفرسان .

وعندما عاد حسن أغا بعد غروب الشمس علم لدهشته بوجود الضابط الإنجليزي ومدح تصرف نسائه الباسلات . وخرج لتوبيخ الفرسان المهاجمين لإلقائهم الروع في نفوس نسائه ولعب دور الزوج الذي لا يهديء ثائرته شيء . وأخيرا عند حلول الليل ، ملأ قاربه بالنباتات والحشائش وتمكن من تهريب الضابط الانجليزي المتنكر عن طريق النهر الى بر الأمان قرب جسر السماوه حيث قابله هناك حراس بريطانيون . وعندما كنت في العراق تمكنت من الحصول على مكافأة مجزية من الحكومة لحسن أغا عرفانا بصنيعه النبيل .

وقد لوحظ بالطبع مراعاة البدوي لسمعته الشخصية (الشرف) وسمعة نسائه (العرض) . ويضاف الى ذلك (الشيمة) وهو إحساس بالاحتشام والأمانة يذهب الى أبعد من حدود ما يعرف من قوانين الشرف القبلي أو الشخصي . وأروي القصة التالية لأوضح مثالا على ذلك ، وقد أخبرني بها عثمان الراشد من بريدة وهو يشهد على صحتها .

منذ سنين خلت ، في عهد ابن الرشيد ، عاش في بريدة شخص معروف من عائلة الربادي . وكان هذا الرجل في سعة من العيش ، ولكن مرت به أيام ضائقة بسبب كساد التجارة . ومن كل قطعانه بقيت لديه ناقة عجوز متهالكة قرر بيعها ذات يوم . ولهذا طلب من بدوي مسافر من قبيلة شمر أخذها معه ومحاولة بيعها وعند مروره مرة أخرى بديار حائل يستطيع تسليمه ثمنها . ووافق الشمري وأخذ الناقة معه . ولكن يشاء الحظ أن تكون الرحلة الى حائل قاسية لم تتحملها الناقة ومرضت ثم ماتت في الطريق . وقرر الشمري الشريف أن وبر الناقة ذو قيمة وسيحاول الاستفادة منه لصالح صاحبها ولهذا سلخها وملحها ثم رحل الى دياره .

وعندما نشبت الحروب بين الرشيد وأبناء آل سعودلعدة سنوات لم يعرف تاجر بريدة شيئا عن ناقته ونسيها تماما. وذات يوم بعد حوالي ثلاثين عاما ، أقبل عليه رجل عجوز وشابان صغيران وهم يقودون اثنين وأربعين بعيرا في أتم الصحة والقوة . وعرف أن الرجل العجوز هو التاجر الشمري الذي مر به منذ ثلاثين عاما مضت . أتى ليعطي تاجر بريدة حقه .

وقال يشرح المسألة (لقد ماتت ناقتك ، ولكني حصلت مقابل وبرها على عدة

ريالات أتجرت بها حتى استطعت الحصول على ناقة جديدة ولدت ناقة أخرى وكل تلك الإبل التي تراها من سلالتها . ولم أجد الفرصة قبل الآن للحضور لدفع ماأدين لك به وهو تلك الإبل .) !

الغزوات.. والحروب

في الصفحات السابقة تعرضنا لعادات البدو التي تؤثر عليهم في وقت السلم . وهنا سنستعرض القوانين والسلوك المتعلقة بالغارات (الغزوات) والحروب .

الغزوات هي نسمة الحياة بالنسبة للبدوي . فاذا منعت عنه أصبح أكثر الناس كآبة . فالغزوات ليست فقط هي الطريقة الوحيدة التي يأمل أن تتحسن بها أحواله المعيشية ولكنها أيضا المقابل لأنواع الرياضة المختلفة التي تمارس في العالم الغربي . وكذلك فهي ترمز بالنسبة للبدو لكل ما هو رجولي بطولي ورياضي . والمحارب المشهور يكرم قبل كل الرجال ، والصبيان يتوقون لليوم الذي يسمح لهم فيه بمرافقة الكبار في الغزوات ويكسبون صولات وجولات .

وغزوات الصحراء في معظم الأحيان لا تكون لإراقة الدماء وليس هناك في حروب الصحراء ما يسمى (قتال حتى الموت) أو (آخر نفس) دفاعا عن الزوجات والأطفال والمتاع . فقوانين الصحراء تضع المرأة البدوية وأطفالها الصغار في مكانة مقدسة لا تنتهك حرمتها . وإذا حدثت غزوة مفاجئة على مخيم واجتاحته جماعة من فرسان الأعداء فلا خوف على المرأة من كل ما يحدث وقد يقتل الرجال ويهرب الأولاد ولكن خيمة النساء في مأمن من الخطر . وفي مثل تلك الحالات تلوذ النساء بخيامهن يبكين وينحن ولكنهن يعلمن أن المنتصرين لن يمسوا شعرة من رؤوسهن . وقد أخبرني الشيخ حزام السعدون من قبيلة المنتفق ، وهو محارب معروف في الأيام الخوالي ، أنه في عام ١٩١٧ قتل واحدا من رفاقه في إحدى الغزوات لأنه في نشوة النصر نسى نفسه وحاول أخذ سوار من ذراع صبية من الجانب المهزوم . وهناك قوانين محددة تسمح للمغيرين المنتصرين ، بعد تطويق الإبل والغنم وسحبها ، بالاستيلاء على ممتلكات معينة مثل السجاد ودلال القهوة والخيام الإضافية والمواد الغذائية إذا كانت متوفرة بكثرة . ولكن يجب ترك خيمة رئيسية لربة كل عائلة وطعام كاف لمدة محدودة من الزمن . أما مجوهراتها وحليها فهي في مأمن وكذلك هودجها . وقد حدث خرق لتلك القواعد مرة واحدة في نهاية ثورة الإخوان في ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ .

ويعلم البدوي أن نساءه وأطفاله في أمان ولهذا لا يغامر بقتل محقق إذا كانت هزيمته مؤكدة ! ولهذا يترك إبله تنهب وهو يعلم أن دور إنتقامه سيأتي في يوم قريب . وهذا لا يعطي إنطباعا سيئا عن شجاعة العربي . فهو رجل شجاع مقدام ، ورغم أنه لا يتظاهر بمقاومة قوى



أعظم منه ، ولكنه سيحارب ببراعة إذا رأى أن كفة الحرب متساوية ومما يعطيه حماسا أكبر وقوة أشد صيحات تشجيع نسائه . وفي حالة قبائل العجمان والعوازم كانت النساء يجلبن الذخيرة والماء للمحاربين واشتهرت النساء بإظهار لا مبالاة رائعة بالنسبة للخطر وطلقات النار في تلك الأحوال . ولكن عندما يدرك البدوي أن الهزيمة محققة ففي تلك الحالة فقط يرى أن الحرص والحذر هما الجانب الأسلم من الشجاعة .

وتختلف الحرب عن الغزو في أن الحروب يمكن أن تقوم في وقت السلم وعندما تكون الحرب وشيكة الوقوع بين قبيلتين فيجب تحريك المسببات والعمل ببعض القواعد . أولا إظهار العداء ثم توجيه إنذار من القبيلة التي تنذر بالحرب الى خصومها إما برسالة خطية أو شفوية . ومن الجدير بالذكر أنه ليس من الشهامة العربية شن هجوم مفاجيء على حين غرة .

عندما توجه القبيلة إنذارها إلى الخصوم تضيف له : (فلان بن فلان شجاع الحرب سيحاربكم) . ويقوم شيخ القبيلة التي يوجه إليه الإنذار باستدعاء رجاله ومقاتليه وينبئهم بإعلان الحرب . ثم يملأ فنجانا من القهوة ويصرخ (هذا الفنجان يرمز لفلان وفلان من مقاتلي الخصوم ، من منكم سيشربه ؟ من سيصرعه بضربة واحدة ؟)ويجيب أحد الشجعان (أنا جاهز) فيقدم له الفنجان ويشربه . ومثل هذا يأخذ مجراه عند الخصوم أيضا . وهكذا تتواجه القبيلتان المتقاتلتان ويخرج فارسان من كلا الجهتين ويدور كل منهما نصف دورة في ساحة القتال ليستعرض فرسه وفروسيته ثم يبدأ بمبارزةخصمه من القبيلة الأخرى قبل بدء المعركة الكبيرة .

وأهم هدف تحققه القبائل من الحروب هو الاستيلاء على اكبر عدد ممكن من الجمال وإلحاق الضرر بالشباب من الأعداء . وقلما تحدث الغارات في الشتاء لثلاثة أسباب رئيسية ، أولا : كثرة المراعي في كل مكان وارتكاز القبائل القوية حيث ترعى جمالها ومواشيها يحول دون نجاح أى غارة فجائية ، ثانيا : لا يعود مطلب الماء من الاستراتيجيات المهمة حيث يتحكم في تحركات القبيلة نظرا لوفرته في كل مكان ، ثالثا : تستطيع أى قبيلة صغيرة كانت أو غير قوية أن تتفادى الأعداء بالتنقل المستمر وإخلاء المناطق الخطرة .

أما في الصيف فجميع البدو معرضون للخطر إذ يضطرون للتخييم حول الآبار بينما ترعى جمالهم على مسافات طويلة منهم . ويضطر البدو إلى ترك ماشيتهم وقطعانهم في عهدة دوريات لا تمنح الحماية الكافية ، فلو لم تتمكن الدورية من صد الهجوم في أوله يكون المعتدون قد جمعوا الماشية والرعيان وهربوا بها قبل أن تصل أى نجدة من المخيم .

ويعتمد البدو على عنصر المفاجأة في نجاح الغارة . فإذا شعر المغيرون بأن تحركاتهم مكشوفة تراجعوا بدون أى تردد . وللحفاظ على عنصر المفاجأة فإن أى بدوي يوجد في طريق الغارة يجبر على السير في صفوفها لئلا ينتشر الخبر . كذلك كثيرا ما يعمد القادة إلى تغيير خط إتجاههم بعد يوم من السير إلى إتجاه معاكس تماما . وتعتبر أنسب الأوقات للإغارة عند الفجر أو أثناء العواصف الرملية .

والغارات التي تشن من على بعد مسافات طويله تستخدم الجمال فقط

ويوجه المغيرون ضربة من على بعد مائتين وخمسين ميلا أو أكثر بعد سير يوم وليلة . أما الغارات التي تشن من مسافات قصيرة ، حوالي المائة ميل فتستخدم فيها الجمال والخيول على قدم المساواة . فارس خلف كل راكب جمل ، وتقاد الخيول لمسافة مرمى حجر من المكان المقصود ثم يترجل الفرسان عن الجمال ويقومون بتحميل ظهور الخيول بما يسلبونه ويقوم راكبو الجمال بدور القوة الداعمة التي تعمل كغطاء للفرسان ريثما يجرون جمال أعدائهم وينسحبون . ويحمل الماء للرجال والخيل على ظهور جمال مخصصة في كل أنواع الهجوم ، ولا تنال الجمال أى شيء إلا بعد الإنتهاء من الغزو .

ويشن الهجوم المنظم على المدن أو المخيمات المحصنة مشيا على الأقدام على شكل طوابير متتالية ويظل الفرسان وراكبو الجمال كاحتياطي . يتبع نفس الطريقة ضد العدو الذي إذا ما هوجم إتبع الخدعة الحربية المعهودة وهي الجلاء عن الآبار التي لابد وان يستريح حولها الغزاة .

لكل أمير عربي وقبيلة عربية صرخة حرب خاصة وللبعض عدة صرخات . وتطلق هذه الصرخات عند إحتدام القتال وخاصة اثناء هجوم الفرسان حيث تثير الحماس والاستبسال لديهم . وتهدف صرخة الحرب الى اثارة الرعب في صفوف العدو ، كما أنها تمكن المقاتل من تمييز الصديق من العدو في العراك الذي يعقب الهجوم حيث تكون الوجوه مغطاة فيما عدا العيون كما انه لا يوجد زي محدد يفرق بين الجانبين .

وفيما يلي نماذج لصرخات الحروب الخاصة ببعض القبائل الشهيرة في الجزيرة العربية :

آل سعود : (العوجا) ، أنا أخو نورا . أنا ابن مجرن .

الصباح : أنا ولد سالم ، أنا أخو مريم .

شمر : سناعيس .

عجمان : مفراس الحديد . وأنا ابن العجمان (صفار) . صافي الموت ، أنا أخو من طاع الله ..

(مطير) علوه : علوه ، أهل الرطاة

القبلان : خيال الصبحا ، القبلي .

الموهه : أولاد المويهي ، البطحا ، أنا ابن مدواش .

واصل : أولاد واصل ، آل رحمان ، وأنا ابن واصل .

بني عبدالله : أولاد عبدالله .

صعران : العشوى ، أنا ابن علي .

الصهبا : خيال صبحا مصهبي .

العوازم : عطوى ، أولاد عطوة ، وعادة تختصر بـ(أولاد عطا) .

الرشايدة : الدعيجي ، مر الدلالة الدعيجي ، خيال الصبحا الدعيجي .

حرب : أنا ولد علي .

عتيبة : أهل العطية (آل عطية) وأنا ابن روق .

سبيع : العرفا ، السبيع .

ظفير : الجروا ، سويطي ، صبحاتما .

معظم هذه الصرخات تثير حماس المقاتلين بأسم جد القبيلة المشترك مثل : (أنا ابن فلان وفلان) أو (أبناء فلان وفلان) . وتشتمل بعض الصرخات على إشارات محددة مثل : (الصبحا) عند القبلان فخذ مطير وهو اسم تل في نجد يقصده الناس كمنتجع . وفي صرخات الموهه : (البطحا) وكان اسم جمل

الدويش الخاص ، و (مدواش) اسم جد شهير ، و (العشوى) إحدى صرخات الحرب عند الصعران وهو اسم ناقة .

وإذا كان لابد من الاستسلام فان علامة الاستسلام المعروفة برفع اليدين إلى أعلى يوازيها عند البدوي إلقاء البندقية ووضع الابهامين داخل الفم ومد بقية أصابع اليدين الى الخارج باتجاه الخصم وهو ما يفعله الهارب اذا ما أيقن ان مطارديه على وشك الامساك به وقتله . وبهذا العمل يبين ان لا سبيل الى الفرار وأن الموت حليفه ، ولكنه مع ذلك يعتبر نفسه تحت رحمة الله ورحمة عدوه ، وغالبا ما تكون النجاة بنسبة تسع حالات من عشر .

ويمكن ان ينجو من الموت الرجل من الجهة الخاسرة اذا تعرف الى صديق قديم في صفوف الاعداء وطلب الحماية منه بقوله (بوجهك) . وفي حالة استسلامه لعدوه يناشده بالقول (أنا دخيلك) أو (انا تحت رحمتك) . فاذا كان الشفيع المنشود صاحب نفوذ قوى بين رفاقه أجاب (لقد منحتك حمايتي . يدي فوق ذراعيك) ، وفي ظل هذه الظروف ينجو المستسلم من الموت بكل تأكيد ، ويعاقب كل من يؤذيه من القبيلة لانه بذلك يسود وجه الحامي الذي أعطى وجهه علامة العفو . أما اذا لم يكن الشفيع ذا أهمية تؤهله منح الحماية فإنه ينادي على المتوسل وينصحه باللجوء الى شخص آخر أكثر منه أهمية ونفوذا ويشير اليه بمكان وإسم ذلك الشخص .

وتتماثل أحكام الاستسلام مع أحكام الدخاله (الإستجارة) ، فالذي يستسلم يكون وضعه كوضع المتوسل ، ولا يجرؤ العربي على انكار هذه القضية . والفرق الوحيد بين الوضعين هو أن العدو عندما يطلب العفو في الحرب يمكن أن يستجاب رجاؤه أو لا يستجاب . ويمكن ان يضيف الحامي بعض الشروط (أضمن حياتك وبندقيتك ولكن لا أضمن فرسك) أو (أضمن حياتك فقط ولا أضمن سلاحك أو فرسك) أو (حياتك رهن لقرار الشيخ) . وعموما اذا منح (الوجه) وجبت سلامة الاسير ، وان خرق أي رجل هذا العرف يخضع لغرامة كبيرة من المال والجمال وتظل فعلته هذه وصمة عار في جبينه أمام قبيلته التي لن تسامحه على ما اقترف .

ويعتبر فيصل الدويش الكبير ، شيخ قبيلة مطير من أبرز شيوخ الجزيرة العربية الذين عرفتهم.

وربما كان أعظم قائد وأبرع استراتيجي بدوي انجبته الجزيرة العربية بعد ابن سعود خلال القرن . كانت أول مرة لقيته فيها في أغسطس ١٩٢٩ في الصبيحية خلال حركة تمرد الاخوان.

كان فيصل الدويش عريض المنكبين ، قصير القامة رأسه وأنفه كبيران بشكل ملحوظ . وكان صارما وصموتا ، يندر أن يتحدث مع من حوله ، ومع هذا فقد كانت قبيلته (الدوشان) وقبيلة مطير بكل فروعها وأفخاذها تقدسه وتعتبره بطلا . وكان اذا مشي بدا ظهره محدودبا وعرج نتيجة جرح قديم في ساقه ، عبر الى الكويت مع جميع القوى المتمردة من مطير والعجمان وخيموا حول آبار الصبيحية ، كانت خيامهم تحصي بثلاثة آلاف خيمة وجمالهم بمئة ألف ، وكان الجند يتضورون جوعا بعد أن نفدت مؤونتهم فتعشم الدويش شراء الطعام لهم من ميناء الكويت ، لقد كان منظرهم مشهداً مؤثراً لن أنساه مدى الحياة .

أبلغت الحكومة البريطانية بتدفق تلك القوات الهائلة الى أراضي الكويت وطلبت حكومتي مني إنذار فيصل بالانسحاب خارج الحدود خلال ثمان واربعين ساعة والا تعرضت قواته للقصف من قبل سلاح الطيران الملكي . طلبت من فيصل مقابلتي في أراضي ملح على بعد خمسة عشر ميلا جنوب مدينة الكويت ، واتجهت الى ذلك المكان دون الانصياع لنصيحة شيخ الكويت الذي كان يخشى الخيانة ، ولكنه في اللحظة الاخيرة تبعني ومعه أربعة من خدمه قائلا بأنه شعر بواجب مشاركتي قدري اذا مالحقني الاذى .

وصل فيصل إلى الملتقى يرافقه القادة الرئيسيون لحركة الاخوان . وبعد أن أبلغته بما يجب أضفت بأنني قد رجوت الحكومة البريطانية أن ترفع يدها لمدة يومين رأفة بالنساء والأطفال الذين يبلغ عددهم عدة آلاف ورجوته ان يعطيني وعدا بالانسحاب خارج الحدود خلال الفترة المحددة . وتكلم لمدة ساعة كاملة مؤكدا أن لا خلاف بينه وبين البريطانيين وانه وقبيلته موالون لشيخ الكويت منذ القدم ويريدون العودة الى حكمه . وقال بأنه ورجاله يعانون من نقص في الغذاء والمؤن .

كنت متشددا معه بالرغم من تأثري العميق ، وأخيرا أقنعته باعطائي الوعد بالانسحاب ، وكانت الشمس قد بدأت تحتجب خلف تلال المناقيش فقال فيصل بان وقت الصلاة قد حان وأخذ ينادي بنفسه على رجاله للصلاة . وضع كل رجل بندقيته أمامه على الارض حسب الطريقة الاخوانية الصحيحة وبدأت الصلاة تحت إمامته ، وما أن انتهت الصلاة وما زال فيصل العظيم راكعا على ركبتيه حتى استدار بوجهه نحو قادته وجنرالاته وأعطى السلام الذي تختتم به الصلاة ، بعد ذلك استدار نحوي وهو ما زال راكعا وقال (أعدك بشرفي أن أفعل ما طلبته مني ، إذهب بسلامة الله) .

التزم فيصل الدويش بوعده ولم أره مرة اخرى الا بعد خمسة أشهر عند استسلامه في الجهراء في يناير عام ١٩٣٠ ، يومها حاولت شق طريقي خلال قذائف الطائرات التي كانت تحاصر مخيمه ، وناشدته لمدة ساعتين الاستسلام لسلاح الطيران وعدم محاولة التقدم كما كان ينوي ، لقد كان وضع الدويش سيئا إذ أن دخوله لأراضي الكويت مرة ثانية جعله عرضة لحصار ومطاردة من قوات سلاح الطيران الأرضية والجوية ولما كانت فرصة النجاة ضئيلة فقد انصاع لنصيحتي وتقدم نحو مخيم ضابط العمليات العسكرية البريطانية وسلم سيفه .

قبل أن يتم نقل فيصل الدويش كسجين الى البصرة عهد الى بزوجته واخواته الثلاث وطفلين صغيرين وسبع وعشرين من أقربائه النساء ، وكانت وصيته الوحيدة (أبو سعود : اترك حريمي في ظل رعايتك وعهدتك الخاصة) . وقد تحملت مسئولية هاته النساء العربيات شريفات النسب وأطفالهن لمدة اكثر من شهر الى أن أرسل ابن سعود شاحنات وخدماً لنقلهن الى عاصمته . وكان لاهتمامي وزوجتي بهؤلاء السيدات النبيلات تقدير كبير لدي الملك الذي دفعته الشهامة العربية لحماية النساء . وقد شكرنا برسالة خطية حارة .

توفي فيصل الدويش في الأسر في الرياض عام ١٩٣٢ . وكان بدون أدنى شك قائدا عظيما حمل أفكاراً نبيلة

وعظيمة لمستقبل الجزيرة العربية ،

عرفت كذلك الابن الأكبر لفيصل الدويش (عبدالعزيز) وكان شابا رقيقا منتصب القامة ذا شعر فاتح ، وكان يعرف باسم (عزيّز) . كان والده شغوفا به وقد قيل ان حركة الاخوان قد بدأت بالانحسار عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ يوم مقتل الشاب عزيز . وحسب قول مطير فإن الاب عندما سمع نبأ وفاة ابنه اصبح كئيبا نكد المزاج قليل الأكل يعتريه التردد والحيرة .

وبالرغم من وفاة عزيز وهو ما زال في الخامسة والعشرين الا انه أبلى بلاء حسنا بالاغارة مع والده ، وقصة إغارته الملحمية الاخيرة أخبرني بها كل من ابن عشوان والشيخ مطلق السور وفيصل بن شبلان الذين كانوا يرافقونه .

ففي منتصف شهر أغسطس من عام ١٩٢٩ قبل أن يحاول الاخوان المتمردون العبور الى أراضي الكويت قرر فيصل الدويش ان يبعث ابنه في غارة طويلة الى أرض قبائل حرب وشمر وجنوب مناطق عنزة بهدف إقناع المتشككين بان حركة تمرد الاخوان حركة جادة وقوية وان على اولئك المتفرجين ان ينضموا الى (الصفوة المختارة) ، ذهب عزيز بقوة منتقاة مكونة من ستمائة وخمسين راكب جمل مختار هم زبدة شباب مطير والعجمان ، ورحل عزيز جهة الشمال الغربي يرافقه عدد من المستشارين ذوى الخبرة الكبيرة للتأكد من أنه لن يجعل الحماس يطغى على الحيطة .

بدأت الفرقة المغيرة سيرها من (عرق) في منطقة الكويت المحايدة فاجتازت حفر الباطن الى اليمين ثم مرت عبر منطقة الباشوك وتركت آبار لينا الى اليمين وآبار الطربية الى الشمال ووصلت الى هازل (شمال حايل) ومن هناك اتجهوا شمالا الى آبار الليفية واستولوا على قطعان كبيرة من جمال شمر والعمارات وقافلة سعودية تقدر قيمتها بعشرة آلاف ريال ثم بدأوا بالعودة الى موطنهم . وفي طريق العودة مروا بـ (لوقا) على اليمين و (جميمه) على اليسار و(لينا) على اليمين . وكانوا ينوون التوقف عند آبار ام الرثامة جنوبي غربي منطقة العراق المحايدة لسقي جمالهم وما ان اقتربوا من لينا حتى سمعوا أن ابن مساعد قد قطع الطريق عليهم واحتل الآبار التي كانوا ينشدونها .

كان وقع هذا النبأ أليما وخاصة في مثل شهر أغسطس حيث القيظ الشديد والجمال عطشى لم تذق الماء لأربعة أيام مضت ، بدأت بعدها تهوى وتنفق من شدة الانهاك وبناء عليه عقد مجلس شوري أشار فيه فيصل بن شبلان الكبير بتغيير وجهة السير فورا ، للابقاء على حياتهم ، الى الشمال الشرقى باتجاه (الرقعي) في الزاوية الجنوبية الغربية من الكويت ، ومن هناك يحاولون الوصول الى المنطقة المحايدة جنوبي الكويت .

أيد ابن عشوان وعدد كبير آخر مشورة ابن شبلان الا ان عزيز قال : (إن الله في صف الاخوان ومن اصطفاهم الله ومن العار تفادي القتال) . ناشده الكبار العدول عن رأيه ولكن دون جدوى . وأخيرا جاء الكشافة بأنباء تقول بأن آبار أم الرثامة تسيطر عليها قوة كبيرة توازي عدد المغيرين . وهنا يتقرر من المقاتل المقدام ! فيصل بن شبلان صرح بانه ينوي الاتجاه برجاله نحو الشمال الشرقي على أية حال ودعا جميع الرجال الحكماء ان يتبعوه ..

رفض عزيز ذو الطبع الحاد اتباع ابن

شبلان . وهكذا رحل الاخير مع ابن عشوان وغيرهم يرافقهم مئة وخمسون رجلا ومئات من الجمال . تقدم عزيز على رأس خمسمائةرجل فقط بالرغم من أن جماله كانت منهكة وتحتضر فوصل الى منطقة الآبار في منتصف النهار وكانت هذه الآبار تحت سيطرة ما يزيد على ألف وخمسمائة بدوي . كان الوضع بائسا والحرارة شديدة والجمال بحاجة الى ماء وجميع القرب الجلديةالاحتياطية قد نفذ منها الماء منذ وقت طويل ، ولم تذق قوات عزيز الماء خلال الثماني الساعات الماضية .

وعلى مرأي من العدو دعا عزيز رجاله الى التوقف وإقامة الصلاة . فركعت القوات الظمأى لأداء الفريضة وصرخ قائدهم (ألسنا من الاخوان ، ومن اصطفاهم الله ؟ سوف نحصل على الماء والله سيعين عبيده ..) . وبعد نصف ساعة ودع عزيز مهرته الغالية وتركها في عهدة أحد خدمه وطلب منه ان يحميها ما أمكنه ذلك ، وأمر رجاله بالهجوم بكل ما أوتوه من شجاعة واقدام ، وهكذا بدأ الهجوم المريع لخمسمائة من الرجال الذين أصابهم الجنون من شدةالعطش .

كانت قوات الاخوان الشرسة على وشك كسب المعركة الا ان قوات ابن مساعد بدأت في التزايد باستدعاء المجموعات من الاحتياطي . وجاءت النهاية مع غروب الشمس القاسية التي لا ترحم ، واقتيد عزيز مع خمسة من خدمه الخاصين بعد أن خسر ما يزيد على ثلاثة ارباع عدد رجاله الذين لم ترهم العين احياء بعد ذلك وانما وجدت جثثهم وجثث جمالهم جافة في (الهجيرة) في الصحراء بعد شهرين من المعركة ، فقد قتلهم الظمأ . كانت النهاية البطولية لعزيز قد ملأت عالم البدو بالاعجاب .

استطاع عدد قليل من قوات عزيز الفرار الى جانب أولئك الذين رحلوا قبل بدء الهجوم . الشيخ مطلق السور ومجموعة من الرجال توقفوا على بعد خمسة أميال من مؤخرة الفرقة المقاتلة لحراسة الجمال المسلوبة ثم هربوا بها الى الجهراء بعد غروب الشمس . وهربت مجموعة اخرى عندما بدأ الظلام يخيم على ساحة القتال واختبأت بين كثبان الرمال حتى اليوم التالي . ولما كانوا على وشك الجنون من شدة الظمأ فقد عادوا عند الفجر طلبا للماء ولكنهم وجدوا قوة مؤخرة من شمر حول الآبار (فأعطتهم وجها) او (منحتم العفو) ولكنها جردتهم من أسلحتهم ، وبعد يوم تركت قوة المؤخرة الآبار لتنضم الى ابن مساعد كما انضم الى الرجال العزل هارب آخر اسمه شافي بحوزته بندقية وذخيرة ، ولما علم ابن مساعد بوجود أربعين من الرجال العزل عند آبار أم الرثامة بعث بستة من رجاله لقتلهم .وصل هؤلاء الرجال الى الآبار عند منتصف النهار فالتقوا بشافي الذي خبأ بندقيته وأفسح المجال للرجال الستة بالاقتراب ، وما أن بدأوا باطلاق الرصاص على الرجال العزل وقتلوا رجلين منهم حتى فر شافي فجأة من خلفهم مع بقية الرجال طارحا على الارض رجلين وجملا واستولى على جمل آخر محملا بأربعة قرب من الماء . وقد مكنت هذه القرب والجمل الثمانيه وثلاثين جريحا الذين بقوا على قيد الحياة من الوصول بسلام .

وأخيرا وصل خادم عزيز ومهرته الى الكويت عبر الجهراء في رحلة بطولية رائعة ، وبالرغم من ان المهرة تناولت شربة ماء واحدة فقط صباح يوم المعركة

الا انها قطعت مسافة مائة وثمانين ميلا من الارض الجـرداء المكشوفـة الى الجهراء خلال ثلاثة ايام بدون ماء . وعندما يكون الوقت في شهر اغسطس حيث تصـل درجة الحـرارة شمس الصحراء الى ١٧٠ درجة فرنهيت خلال النهار فهذه المهرة الفذة تصنف كأحسن فرس يقتنيه عربي ، بعد أسبوع من المعركة تم نقل هذه المهرة الى الكويت وكان من حظي ان توضع في اسطبل بالقرب من بيتي حيث قمت باطعامها ورعايتها لمدة ثلاثة أشهر .

لقد كانت حيوانا جميلا ذات فم وخياشيم صغيرة ، عيناها مستديرتان وكبيرتان تنم عن الحساسية والذكاء ، جبهتها عريضة ولونها كستنائي داكن وعمرها حوالي ثلاثة عشر عاما ، وعندما أحضرت الى ذلك الاسطبل كانت نحيلة عظامها بارزة ومصابة بجرح في وسط ظهرها ، وقد قمت وزوجتي برعايتها الى ان تحسنت صحتها ، فقد كنا نطعمها من أعشاب الفصفص والتمر المهـروس والحليب ، بعد ذلك بفترة قصيرة بيعت سرا حيث طالب بها كل من ابن مساعد وقبائل مطير والظفير كحق مكتسب من خلال انتصارهم في المعركة . وفي النهاية أخذها مالكها الجديد الى العراق وقد شاهدتها عدة مرات هناك خلال السنتين التاليتين .

يتبـع